

١٠٥

على مشارف تبوك

أبو ذر الغفارى : لئن أموت عطشاً تتلقفنى السباع فى الصحراء خير من أن أتخلف عن رسول الله.

النبي : إن كنت لمن أعز أهلى علىّ تخلفاً.. لقد غفر الله لك بكل خطوة ذنباً حتى بلغتنى.. رحم الله أبا ذر، يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده!

* * *

obeikandi.com

«الصحراء الموحشة في الطريق إلى تبوك..
والمسلمون قد أجهدهم السير والعطش.. يمررون
بموضع فيه دوم وماء «ذى المروة».. المسلمون
يرجون أن ينالوا بالمكان بعض الراحة، وأن تبتل
العروق بالماء بعد طول الظمأ..».

بعض المسلمين : (ينادون على الرسول) المبارك يا رسول الله.. الظل والماء..
النبي : إنها أرض زرع نَفَر.. (يستأنف وقد أمسك أحدهم بخطام
ناقته) دعوها فإنها مأمورة..

«المسلمون يدعون خطام الناقة.. تمضى في
سبيلها ثم تبرك تحت دومة.. المسلمون يهللون
ويكبرون، ويتسابقون عطاشى مجهدين إلى الظل
والماء..».

بعض المسلمين : (وقد أحصوا من تخلفوا) يا رسول الله لقد تخلف بعضنا
في الطريق..

«يعددون أسماء من تخلفوا..».

النبي : دعوهم.. إن يك فيهم خيراً سيلحقهم الله بكم!

* * *

«قافلة المسلمين في طريقها بعد أن استأنفت
المسير.. تمر بالحجر حيث كانت أرض قبيلة
«ثمود» قوم النبي صالح.. المسلمون يتلمسون بئر
الماء ليستقوا، ويتلمسون أهل الحجر ليدخلوا
عليهم، ولكن رسول الله - عليه السلام - ينادى
في الناس للصلاة الجامعة.. يجلس عليه السلام
إليهم بعد الصلاة ويقول لهم..».

النبي

: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم.. ولا تشربوا من مائها شيئاً ولا تتوضأوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً..

«المسلمون يتنادون بما أمر به الرسول عليه السلام...».

النبي

: (يستأنف ناهياً) ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له..

المسلمون

: نفعل إن شاء الله..

* * *

«بعد ليلة، والمسلمون يتهيأون لاستئناف

المسير، يتفقون بعضهم فيكتشفون اختفاء رجلين خرجا كل منهما بمفرده.. أحدهما ذهب لقضاء حاجته فلم يعد واختفى، والثاني ذهب في طلب بعيره فاحتملته الريح بعيداً ولم يرجع...».

النبي

: (وقد أخبره المسلمون بالأمر) ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه؟!!

* * *

«ببعض الطريق وقد أناخ المسلمون رواحلهم

طلباً لبعض الراحة.. بعض المسلمين يتفقون ناقة النبي - عليه السلام - فيجدونها قد شردت وضلت، فيخرج بعضهم في طلبها..

«برحل عمارة بن حزم الذى ذهب إلى رسول
الله - عليه السلام.. زيد بن اللصيت القينقاعى
وهو فى رحل عمارة الغائب عند رسول الله، زيد
يغلبه نفاقه فيهمس لبعض من حوله مرجفًا عن
غياب الناقة!...».

زيد بن اللصيت : أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم بخبر السماء و..
جاره : (يقاطعه مستنكرًا) يزعم؟! !
زيد : هو لا يدري أين ناقته؟!
الجار : (يردد مستنكرًا) لا يدري أين ناقته!! !

* * *

«بخباء النبي - عليه السلام - وعنده عمارة
ابن حزم، يفاجأ بالنبي - عليه السلام - يقول
له دون أن يأتي إليه أحد..».

النبي : إن رجلاً فى رحلك يقول هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم
أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإنى
والله ما أعلم إلا ما علمنى الله، وقد دنى الله عليها..
(يلتفت عليه السلام إلى بعض صحابته) وهى فى الشعب
بهذا الوادى قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى
تأتونى بها..

«عمارة بن حزم واقف مبهور كأن على رأسه
طيراً، مشغول الخاطر يتساءل من فى رحله
الذى يقول هذا عن رسول الله، وكيف علم
عليه السلام بأمره ولم يخبره أحد.. عمارة

فى انشغاله لا يحس بعودة المسلمين بالناقة من حيث أخبرهم رسول الله، وينطلق إلى رحله يريد أن يجأ عنق من أرجف برسول الله!». .

* * *

«رحل عمارة بن حزم، يصل ثائرًا من عند النبى - عليه السلام - يسأل رفاقه من الذى تقول بهذا الحديث عن رسول الله...».

: الذى قال زيد بن اللصيت!

أحدهم

«عمارة يندفع إلى زيد يجأ عنقه...».

عمارة بن حزم : (لن حوله) إن فى رحلى منافقًا داهية وما أشعر.. (وهو يطلق زيدًا من بين يديه) اخرج أى عدو الله من رحلى فلا تصحبني..

* * *

«بجانب من مضارب المسلمين، بعض المنافقين الذين خرجوا رجاء الغنيمة: ودية بن ثابت، والجلال بن سويد بن الصامت، ومُحَسَّن ابن حُمَيْر، وثعلبة بن حاطب.. يتناجون فيما بينهم إرجافًا برسول الله والمسلمين دون أن يلتفتوا إلى وجود عمير بن زوجة الجلاس من آخر!..».

ثعلبة بن حاطب : أتحسبون جلال بنى الأصفر كجلاد العرب بعضهم بعضًا؟! .. صدق عبد الله بن أبى بن سلول الذى قال بأمس لكأنى بهم غدًا مقرنين فى الحبال..

الجلاد بن عمرو : والله لئن كان محمد صادقاً لنحن أشر من الحمير!
عمير : (غاضباً) فأنت شر من الحمير.. (يستأنف مقرأً) رسول
الله صادق وأنت الكاذب!
مُحَسِّن بن حُمَيْر : والله لوددت أن أقاصي على أن يضرب كل رجل منا مائة
جلدة، وإننا ننقلت أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه!!

«النبى - عليه السلام - فى خبائه يأتية
الخبر من السماء بما يتقوله المنافقون.. ينادى -
عليه السلام - على صاحبه عمار بن ياسر..»
عمار بن ياسر : لبيك يا رسول الله..
النبى : أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عما قالوا؟
«النبى - عليه السلام - يروى لعمار بن ياسر
ما قالوه..»
النبى : (لعمار مستدرِكاً) فإن أنكروا فقل بلى قلتكم كذا وكذا..

«خباء النبى - عليه السلام - بعد بضع
ساعة، وقد عاد إليه عمار بعد أن أبلغ المنافقين
بما علمه - صلى الله عليه وسلم - من أمرهم،
المنافقون يطيطرون إلى خباء الرسول معتذرين..»
وديعة بن ثابت : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب..
«النبى - عليه السلام - يتنزل عليه الوحي
فيتلو عليهم ما أوحى به الروح الأمين..»

النبي

: (يتلو) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْسِرُوا فَاذْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ (سورة التوبة الآيتان: ٦٥ - ٦٦)

الجلال بن سويد : أحلف بالله يا رسول الله ما قلت من هذا شيئاً!

«النبي - عليه السلام - وقد تنزل عليه

الوحي ، يتلو عليهم ما أوحى به إليه الروح

الأمين...».

النبي

: (يتلو) ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوَلُوا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ (سورة التوبة الآية: ٧٤)

* * *

«قافلة المسلمين في مسيرها وقد أجهدهم التعب

والعطش وتساقط الرجال والعيير من الإجهاد..

يذكرون للنبي تباعاً من يتخلف من الرجال،

فيقول لهم مقولته: إن يك فيهم خير فسيلحقهم

الله بكم - ويذكرون له فيمن يذكرون صاحبه أبا

ذر الغفاري.. يتفقده فلا يجدونه في الركب،

فيستهلون تخلفه عن رسول الله...».

بعض المسلمين : (للنبي) لا زلنا لا نرى أبا ذر..

آخرون : تخلف أبو ذر؟!!

بعضهم
النبي

: (معتذراً عنه) أبطأ به بعييره..
: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير
ذلك فقد أراحكم الله منه..

* * *

«فى بعض الطريق إلى تبوك، وسط هجير
الصحراء القاحلة، وتحت وهج الشمس
المحرقة.. أبوذر الغفارى مجهداً وحيداً ببعيره
وزاده فى الصحراء.. البعير جاث على الأرض
وأبوذر يحاول أن يعينه على السير.. ولكن البعير
لا يقوى على النهوض وقد أشرف على الهلاك..
وإنه لفى حيرته الشديدة والبعير يموت منه فى
الصحراء ليذكر إشفاق زوجته عليه من الخروج
بهذا البعير.. قد أشفقت أن يخرج بهذا البعير
الضعيف الأعجف، والطريق إلى تبوك طويل
وشاق.. وإنه ليذكر كيف ضاق بإشفاقها ولامها
حين حذرتة من أن هذا البعير لن يقوى على
حمله، وقال لها: إذن أمشى!.. أبرقت هذه
الكلمات فى وجدان أبى ذر وهو يرى البعير
يموت.. تردد فى قلبه وكأنه يسمع بأذنيه
كلمات لزوجته: إذن أمشى!.. تهاتفه نفسه:
يا لهذا القيظ والظما ووحشة الطريق، ولكنه
يردها بحزم وكأنه ينهاها عما تتحدث؟»..

: (كالمخاطب نفسه) ماذا تقولين يا نفس، وبأى شىء تتحدثين؟! .. أى قيظ وأى ظمأ؟! لئن أموت عطشاً تتلقفنى سباع الطير فى الصحراء، خير من أن أتخلف عن رسول الله!

«أبوذر يحمل زاده على كتفه، ويواصل السير فى مشقة ضارباً بقدميه فى رمال الصحراء..».

* * *

«ببعض الطريق، وقد أناخ المسلمون رواحلهم تلمساً لبعض الراحة.. يروون عطشهم، ويتفقدون الزاد، ويسقون الإبل والعيير.. الرسول - عليه السلام - يمر بين المسلمين يتفقدهم ويواسيهم ويشجعهم.. ينظر بعضهم فيلمحون عند خط الأفق شبحاً قادماً..».

: يا رسول الله.. ها هو رجل قادم من وراء الأفق.. بعضهم
: يمشى وحده، ولا بعير معه.. أحدهم
: (وهو يرنو ببصره إلى حيث أشاروا) كن أبا ذر.. النبى

«يزداد اقتراب الشبح رويداً رويداً حتى بدأت تستبين ملامحه.. يتعرف عليه المسلمون فيهللون فرحين..».

: (فرحين مهللين) يا رسول الله، هو والله أبو ذر.. المسلمون
هو والله أبو ذر..
: (وهو يتأمل مغتبطاً فى القادم البعيد) يرحم الله أبا ذر.. النبى
يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده..

«المسلمون يكبرون، وقد تغشتهم المسرة.. ما يكاد أبوذر يصل إليهم حتى يسقط إعياءاً!».

: (لأبي ذر) ظنناك قد تخلفت!

المسلمون

: (مغالباً إعياءه) قعد بعيرى عن السير، ثم هلك.. فاحتملت متاعى حتى لحقت بكم.

أبوذر

«النبى - عليه السلام - يقترب من أبى ذر،

ويضع بيديه متاعه من على ظهره..».

: (لأبى ذر مواسياً) إن كنت لمن أعز أهلى على تخلفاً.. لقد غفر الله لك يا أبا ذر بكل خطوة ذنباً إلى أن بلغتنى..

النبى

«أبوذر تغرورق عيناه بالدموع، بينما يلتفت

النبى عليه السلام إلى المسلمين..».

: (للمسلمين) رحم الله أبا ذر، يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده!

النبى

«تتصاعد تكبيرات المسلمين فرحة حامدة

شاكرة بمقدم أبى ذر..».

* * *

«بعد فترة، وقد قطع المسلمون شوطاً آخر فى الطريق، وأناخوا التماساً للراحة وبحثاً عن الظل اتقاءً لوهج الشمس المحرقة، وبحثاً عن مصادر للمياه بعد أن أخذ منهم الظماً الذى أخذ يزداد مع الحر الشديد حتى جعل المسلمون ينحرون إبلهم ليعصروا أكراشها تلمساً لشرب ما بها من ماء.. اجتمعت عليهم عسرة النفقة مع عسرة

المسير مع عسرة القيظ مع عسرة الماء حتى ظنوا
أنهم هالكون عطشاً في الصحراء القاحلة.. النبي
- عليه السلام - يطوف بهم مشجعاً ومواسياً
ومثبِتاً..».

أبو بكر الصديق : يا رسول الله، إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيراً،
فادع الله تعالى لنا..
النبي : (حانياً) أتحب ذلك؟
أبو بكر : نعم فداك أبي وأمي..

«النبي - عليه السلام - يرفع يديه إلى
السماء، ويأخذ في الدعاء حتى أشفق أبو بكر
والمسلمون من طول ضراعتيه.. وإذ هو - عليه
السلام - يدعو ربه، تمر بهم سحابة فإذا بها
تمطر وتسكب ماءها حتى شرب المسلمون وارتووا
وابتللت العروق..».

«النبي - عليه السلام - يدعو بنطع فيسارع به
المسلمون إليه، فيبسطه ثم يدعو المسلمين بفضل
أزوادهم.. الرجال يتسابقون كل إلى رحله
ليجيء منه بما يستطيع.. البعض يجيء بكف
ذرة، والآخر بكف تمر، والآخر بكسرة.. حتى
اجتمع على النطع ما أمكن للمسلمين جمعه..
النبي - عليه السلام - يدعو لهم بالبركة،
فأخذوا يشربون ويأكلون حتى ارتووا وشبعوا..».

النبي : (للمسلمين) خذوا في أوعيتكم..

«المسلمون يقبلون على ما تبقى، دون أن تغارقهم الدهشة كيف كفاهم هذا القدر اليسير وتبقى.. تتزايد دهشتهم وقد بقيت فضلة من الماء والطعام مع أنهم ما تركوا في العسكر وعاءً إلاّ ملأوه...».

: (حامداً شاكرًا) أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنى عبده ورسوله.. لا يلقي الله بها عبداً غير شك فيحجب عنه الجنة.. «تتصاعد تكبيرات وثناء وحمد المسلمين...».

النبي

* * *

«على مشارف تبوك، وقد عسكر المسلمون وأطل الفجر بعد ليل طويل، بينما رسول الله - عليه السلام - قد ذهب لحاجته، وكان إذا ذهب أبعد.. المؤذن يؤذن لصلاة الفجر، فيضطر عبد الرحمن بن عوف للتقدم للصلاة بالناس مخافة أن تطلع الشمس قبل قدوم رسول الله...».

«النبي عائد وعليه جيبته الرومية، فيلقى المسلمين في صلاتهم يؤمهم عبد الرحمن بن عوف وقد ركع بهم ركعة، فلما أهل عليهم النبي - عليه السلام - وهم يسبحون جعل عبد الرحمن يريد أن ينكص وراءه حتى كاد المسلمون أن يُفْتَنُوا.. النبي يشير إلى عبد الرحمن أن يثبت في موضعه، ويبادر - عليه السلام - فيصلى خلفه.. ما كاد عبد الرحمن ينهى الصلاة بالمسلمين حتى تواثبوا إلى الرسول - عليه السلام

- وهو يقضى الركعة الباقية.. فلما فرغ وسلم
جلس عليه السلام يقول لهم..».

: (لعبد الرحمن والمسلمين) أحسنتم وأصبتم أن صليتم الصلاة
لوقتها.. إنه لم يتوف نبى حتى يؤمه رجل صالح من
أمته..

النبى

* * *

«بمضارب المسلمين بعد صلاة المغرب
والعشاء.. النبى - عليه السلام - من حوله
صحابته والمسلمون.. يحادثهم ويبين لهم..».

: (للمسلمين) إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى - عين
«تبوك»، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار..

النبى

: إن الماء فى هذه العين قليل..
: من جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتى.. (يلتفت
عليه السلام إلى بعض الصحابة من حوله) نادوا فى
الناس أن لا يسبقنى أحد إلى الماء..

بعضهم

النبى

«ينطلق الصحابة ينادون بين المسلمين بما
أمر به رسول الله..».

* * *

«ضحى اليوم التالى على عين «تبوك»، وقد
استاء رسول الله من أن البعض قد سبق إلى الماء
ولم يطع ما أمر عليه السلام به.. النبى - عليه
السلام - يلومهم ويعاتبهم، ثم يتناول بعضاً من
الماء فيتوضأ به، فما يكاد يفعل حتى تفجرت

العين بماء كثير فوار، والمسلمون يستسقون وقد
تعلقت قلوبهم بالمشهد الذى يرون...».

: (ينظر إلى صاحبه معاذ بن جبل) يوشك يامعاذ إن طال
بك حياة أن ترى ما ها هنا قد ملئ جنائاً..

النبي

«النبي - عليه السلام - يتفقد المكان، ويختار
موضعاً ليجعله مسجداً للمسلمين.. يرفع بيده
حجرًا ويضعه ليكون قبلة المسجد ويومئ بيده
إلى الحجر وما يليه، فيصطف الناس من ورائه،
ويصلى بهم صلاة الظهر.. ما يكاد يفرغ حتى
يلتفت إلى المسلمين فيشير إلى الشمال والجنوب
تباعاً ويقول لهم...».

: (وهو يشير للشمال ثم الجنوب) ما ها هنا شام، وما ها هنا
يمن.. (يجلس عليه السلام وقد التف المسلمون والصحابة
حوله) ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؟
: بلى يا رسول الله..

النبي

: إن من خير الناس رجلاً يحمل فى سبيل الله على ظهر
فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت،
وإن من شر الناس رجلاً فاجراً جريئاً يقرأ كتاب الله لا
يرعوى إلى شىء منه..

المسلمون

النبي

* * *

«تبوك فى صباح اليوم التالى، بعد الصلاة،
النبي - عليه السلام - يجلس فيجلس إليه
الصحابة والمسلمون، فجعل يعظهم ويوصيهم
ويقول لهم:

: «يا أيها الناس أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ،
وأوثق العُرَى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وخير
السنن سنة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن
القصص فى هذا القرآن ، هذا وخير الأمور عوازمها ، وشر
الأمر محدثاتها وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف
الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ،
وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى
عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل
وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر
الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتى
الجمعة إلا دُبْرًا ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هُجْرًا ، ومن
أعظم الخطايا اللسان الكذاب ، وخير الغنى غنى النفس ،
وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل ،
وخير ما وَقَرَ فى القلوب اليقين ، والارتياح من الكفر ،
والنياحة من أعمال الجاهلية ، والغلول من جمر جهنم ،
والسُّكْرُكَة (شرب الذرة المُخمر) من النار ، والشعر من
إبليس ، والخمر جماع الإثم ، والنساء جباله الشيطان ،
والشباب شُعبَة من الجنون ، وشر المكاسب كَسْبُ الرِّبَا ،
وشر المأكَل مال اليتيم ، والسعيد من وَعِظَ بغيره ، والشقى
من شقى فى بطن أمه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة
أذرع ، والأمر إلى الآخرة ، وملاك العمل خواتمه ، وشر
الرؤيا رؤيا الكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المؤمن
فسوق ، وقتال المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله عز
وجل ، وحرمة ماله كحرمة دمه ،

ومن يتأَلَّ على الله يكذِّبه، ومن يَعْفِرُ يُعْفَرُ له، ومن يَعْفُ
يُعْفَ عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على
الرَّزِيَّة يعوضه الله، ومن يبتغ السُّمعة يُسَمِّع الله به، ومن
يصبر يَضَعِّف الله له، ومن يعص الله يعذبه الله. اللهم اغفر
لى ولأمتى.. اللهم اغفر لى ولأمتى.. اللهم اغفر لى ولأمتى -
أستغفر الله لى ولكم».

* * *